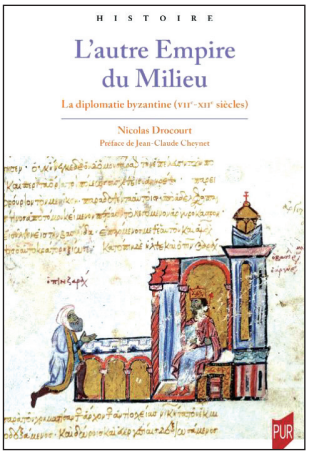

Nicolas Drocourt.- ***L'autre Empire du milieu. La diplomatie byzantine (VII[e]-XII[e] siècle).*** **Préface de Jean-Claude Cheynet (Rennes: Presses universitaires de Rennes, 2023), 308 p.**

نيكولا دروكور.- الإمبراطورية الوسطى الأخرى. الدبلوماسية البيزنطية (القرن السابع-القرن الثاني عشر)، تقديم جون كلود شايني (رين: المطابع الجامعية، 2023)، 308ص.

صدر عن المطابع الجامعية بمدينة رين الفرنسية عام 2023، كتاب بعنوان: **الإمبراطورية الوسطى الأخرى، الدبلوماسية البيزنطية بين القرنين السابع والثاني عشر ميلاديين**، لمؤلفه نيكولا دروكور، الأستاذ المحاضر في التاريخ الوسيط بجامعة نانت الفرنسية. ويبدأ الكتاب بتقديم من الأستاذ جون كلود شايني، ويتكون المؤلف من 308 صفحة موزّعة على ثلاثة أجزاء، إضافة إلى الخرائط التي تم تضمينها في متن العمل وقائمة المراجع والفهارس.

وكان نيكولا دروكور قد أصدر كتاب **الدبلوماسية في البوسفور**، حول السفراء الأجانب بالإمبراطورية البيزنطية في سنوات 640-1204 م، ويقدم لنا هنا في كتابه المعروض على القراء ما يمكن وسمه بـ "دليل الدبلوماسية البيزنطية" يتناول فيه كافة أشكال هذا النشاط ومختلف مستوياته ومنها: المبادئ النظرية لتفوّق "الروماني،" الذي يتحكم في مشاعره والمُسالم في مواجهة البربري العنيف، فضلا عن إبراز تفوّق الإمبراطور البيزنطي على جميع الحكام، وهي مبادئ لا تتعارض مع الممارسة الواقعية لتوازن القوى. ويُتيح الكتاب إمكانية النفاذ إلى جانب أساسي من تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي تركت بصماتها على ثقافات شرق البحر الأبيض المتوسط، عبر إماطة اللثام عن تطور سياستها الخارجية.

وقدّم المؤلف صورة مُركّبة ومُعقّدة للدبلوماسية البيزنطية ترتكز على ثلاثة أبعاد: فقد كانت تسعى بكل ما أوتيت من جهد إلى الاستخبار عن جيرانها ومحيطها الإقليمي حتى تُكيّف سياستها، كما استندت إلى سياسة الإغواء للثني والإقناع وكذلك إلى دفع الأموال لشراء السلم واستقطاب الحلفاء. والحقيقة أن هذه الدبلوماسية كانت تشكل أحد الأسلحة في الإعداد للحروب وفي شنّها. غير أن هذه الملاحظة لا تلغي - حسب وجهة نظر المؤلف - استخدام المفاوضات، أو عناصر الاقناع بهدف تجنّب المواجهة المسلحة بالمعنى الضيق للكلمة. ويُشدّد المؤلّف في مواضع من العمل على الأدوار الخفيّة التي لعبها الفاعلون- في غير المركز- أو ما وسمهم بـ "رجال الظل" الذين كانوا بأطراف الإمبراطورية بحكم

طبيعة دورهم الذي يقتضي التحفظ، وبالتالي لم تتعرض لهم المصادر الرئيسية التي كتبت في القسطنطينية. وهذا يعني بإيجاز أن الدبلوماسية ممارسة حكومية أساسية مُعقّدة ودقيقة في تنفيذها.

ولإنجاز هذا العمل اختبر نيكولا مدونة مصدرية مُتنوعة، وتسلّح بقراءات ودراسات جادة ومختصة وثرية حول العالم البيزنطي وملامح علاقاته الخارجية. ولاريب أنه اعتمد بصفة أساسية على المصادر اليونانية بوصفها لغة الإدارة البيزنطية، ومنها المراسلات الرسمية الصادرة عن ديوان الإنشاء البيزنطي ولكن خاصة كتاب المراسم (De cerimoniis)، الذي تم تأليفه في منتصف القرن العاشر في فترة حكم أحد الأباطرة المقدونيين وهو قسطنطين السابع، وكذلك كتاب الإدارة الإمبراطورية (De administrandoimperio)، الذي يمدنا بمعطيات عن السياسة الخارجية البيزنطية خصوصا في بداية القرن العاشر. كما اعتمد على مصادر بلغات لاتينية وعربية أو مترجمة (المصادر الإخبارية والحوليات وتقارير الرحالة -نصوص الاتفاقيات-تقارير المهمات...). وقد عالج هذه المصادر بحرفية عالية ومكابدة تستحق التنويه، إذ كان لا يخفي حذره منها مع تنسيب ما توصل إليه من خلاصات.

وتناول الجزء الأول بالتحليل الدبلوماسية البيزنطية من خلال فصلين بهدف إبراز الأيديولوجية السياسية للإمبراطور البيزنطي وطبيعة علاقاته الخارجية، ثم التطرق إلى مختلف المؤسسات التي كانت تؤمن العلاقات الدبلوماسية للبيزنطيين على غرار الامبراطور ومكتب الإشراف على شبكة الطرقات والبريد الامبراطوري، فضلا عن المترجمين، ووصولا إلى عملية إبرام الهدنة وتوقيع اتفاقيات السلم من جانب أحادي.

وتصدى المؤلف في الجزء الثاني إلى مسألة على غاية من الأهمية، تتعلق بالمفاوضات وآليات تحقيقها وبالفاعلين الدبلوماسيين. ولا ريب أن هذه المباحثات لا تخلو من الارتباط بمسائل ضبط الحدود، كما أن إنشاء تحالفات هجومية أو دفاعية، يُعد أيضا أحد الأهداف الموضوعية لإبرام المعاهدات. ويشير إلى مدى الارتباط الوثيق بين الدبلوماسية والحرب. ولعل أنه من بين آليات التفاوض، تقديم الهبات التي كانت تُعد بمثابة سلاح يبهر متلقّيه ويروج لصورة الإمبراطورية السخية. وقد استدل الكاتب بمثال الحرير الذي غالبا ما كان يجد مكانا له في أمتعة المبعوثين أو السفراء، مما حدا ببعضهم إلى الحديث عن "دبلوماسية الحرير،" لتوصيف الدبلوماسية البيزنطية، والدلالة على مكانة الحرير في سياق السياسة الخارجية البيزنطية.

وناقش المؤلف في الجزء الثالث، مسألة المراسم الدبلوماسية - التي أصبحت من صميم اهتمامات المؤرخين منذ سنوات-ودورها في نحت صورة القصر الامبراطوري

البيزنطي من خلال طريقة استقبال المبعوثين الأجانب وكذلك دراسة الولائم وأثرها في تحديد نظام تراتبي. لذلك استند نيكولا إلى كتاب المراسم الذي كان يهدف إلى تقديم نموذج لتنظيم حياة القصر والبروتكولات التشريفية المتصلة به. فهو يوفر ضوابط يتوجب اتباعها، من خلال تقديم المشورة بطريقة نظرية ولكن أيضا من خلال تقديم أمثلة محددة من جلسات الاستقبال التي جرت في القصر الكبير عام 946 م. وقد نتج عن مختلف هذه المراسم تمتع بعض القوى بمبدإ الأسبقية أو الأفضلية الدبلوماسية.

إن الدبلوماسية تحتل مكانة فريدة، وتفتح الطريق أمام أسئلة مهمة حول آليات نقل المعلومات والتجسّس- الذي يعد قضية حاسمة في الصراع المستمر منذ قرون بين بيزنطة والعرب- أو التحيّل. ويشدد الكاتب على أنه من الممكن فهم هذا النشاط الدبلوماسي ذاته ليس في مركزه أي القسطنطينية، وإنّما على أطراف الإمبراطورية وحدودها. ويضيف نيكولا بأن البيزنطيين اعتمدوا على ثلاث مناورات دبلوماسية متكررة هي: إيجاد حلفاء لحماية حدودهم، وتقسيم بعض المناطق من أجل الحكم والسيطرة، وتجنب القتال على جبهتين في وقت واحد.

وخلص المؤلف إلى أنه غالبا ما يتم تعريف النشاط الدبلوماسي، بأنه سمة من سمات القصر الامبراطوري في القسطنطينية والواجهة التي يشغلها بين الحرب والسلم، بيد أنه يعتبر أيضا حقيقة واقعة على الأطراف الحدودية للإمبراطورية البيزنطية. ويمكن ملاحظة هذه الدبلوماسية وقراءتها بطرق مختلفة: أولا من قبل الأفراد أو الفاعلين (السفراء-وحكام المقاطعات)، ثم من خلال الإجراء الذي يمكن أن يتخذه المنشقون والمنفيون، ولكن أيضا وقبل كل شيء مغتصبو السلطة هناك، إذ يمكن أن يكون التفاهم مع جار مباشر للإمبراطورية بمثابة استراتيجية مربحة.

لقد قدم لنا نيكولا صورة معقدة لدبلوماسية الإمبراطورية في ارتباط جيوسياسي مستمر على أطراف الإمبراطورية، وحتى خارجها. وفي توسع نطاقها الجغرافي من المحيط الأطلسي إلى الصين، ومن الدول الإسكندناڤية إلى بلاد النوبة، فقد كانت هذه الدبلوماسية ضرورية لبقاء الإمبراطورية واستمرارها. وحاول المؤلف تقديمها من خلال منطقها الناظم لها بين المبادئ النظرية والبراگماتية على الميدان، في دراسة تمنح مكانة الصدارة لفاعليه وأدواته المرموقة (ذهب، هبات، ألقاب) ولا تغفل أماكنه الرمزية من القصر الامبراطوري إلى فضاءات الحرب.

ويظهر من خلال هذه الدراسة القيّمة، أن الدبلوماسية البيزنطية قبل كل شيء ومهما كانت النصوص التي تنقل مبادئ الامبراطورية الأيديولوجية والسياسية، قصة تكيّف مستمر

ومنتظم على الأرض. إن الوقائع التي كانت تحدث على حدود الإمبراطورية-وخارجها- فضلا عن توازن القوى الذي كانت تعيشه مختلف الجهات الفاعلة في العلاقات "الدولية" قاد الإمبراطورية إلى تبني البراگماتية في نشاطها الدبلوماسي باعتباره رد فعل متكرر، إن لم يكن يوميا. وبحكم امتداد مجال الإمبراطورية البيزنطية فإن التعامل مع غير المتوقع هو ضرورة منتظمة ومتكررة لدبلوماسية العصور الوسطى بشكل عام والبيزنطية الوسطى بشكل خاص.

ولا مراء في أن المؤلف قد استفاد من القراءات الجادة والمتعددة التي استأنس بها لدراسة الدبلوماسية البيزنطية دون أن يقع في فخ التنميط مع إمبراطوريات أخرى، ذلک أن لكل إمبراطورية سياستها الخارجية المرتبطة بالسياق التاريخي، غير أن ما يمكن التعجيل به في هذا الإطار هو تشديده على خاصية مُميّزة للدبلوماسية البيزنطية تتمثل في مراوحتها بين الاستخبار والهيمنة والسخاء. وبالإضافة إلى مسألة المعلومات عنصرا مركزيا في البراگماتية للدبلوماسية البيزنطية، فإنها تتميز بكلمة رئيسية أخرى هي: الإغواء. ففي العديد من الجوانب، سيكون الإغواء اختيارًا طوعيًا ومفترضًا بالكامل بهدف ردع و/ أو إقناع جيران الإمبراطورية. وتظل الولائم في القصر الامبراطوري علامة فارقة عن التراتبية الدبلوماسية تتصل بحضور الضيوف. فالمكان الممنوح لكل شخص يشير بوضوح إلى أنه يخضع لتنظيم دقيق. وحتى الأسبقية أو الأفضلية، فهي في حد ذاتها انعكاس للجانب الجيوسياسي واختيار الحلفاء وثقل "الأصدقاء،" وكذلک توحي أحيانا بالازدراء لبعض الزوار الذين يجلسون في نهاية طاولة الوليمة، أي بعيدا عن الامبراطور. ومن خلال هذه الوسيلة، تهدف الدبلوماسية إلى تحقيق أهدافها مع الحفاظ على السلام وفرض فكرة كرمها وسخائها. إن الأبهة والرغبة في إبهار المتلقي واحترام التنظيم والتراتبية الدقيقة في كل التفاصيل (موقع الضيوف-الهدايا- وإيقاع اللحظات المختلفة التي تتخلل الجلسات والايماءات والمواقف وما إلى ذلک) وفخامة الأثاث، كلها عناصر تميز الدبلوماسية البيزنطية وهي ليست اعتباطية أو مجانية. إن هذه الزيارات الدبلوماسية هي وسيلة متكررة لتجربة الأماكن القديمة المشتركة حول الهيمنة أو التفوق البيزنطي، ولكنها أيضا وسيلة مميزة لمعرفة المزيد عن جيران الإمبراطورية. لكن اللافت للانتباه في هذه الدراسة، أن المؤلف لم يسهب كثيرا في الكشف عن تمثلات القوى الأجنبية تجاه البيزنطيين، وربما يعزى ذلک إلى طبيعة المصادر المتاحة والمستعملة.

جرّب المؤلف ضمن أثره العديد من النماذج المعرفية واستطاع بمستويات متباينة من التوفيق ملاءمتها مع مسألة الدبلوماسية البيزنطية. كما أوحى لنا ما نضّده من عروض بقدرته على مجادلة العديد من وجهات النظر المعرفية والاستنتاجات المتسرعة غير الدقيقة، متدخلا

في العديد من المناسبات لتنسيبها. ولئن استند العمل إلى التجسيد النظري، واحتاجت بعض التصورات أو الفرضيات التأويلية التي قدمها إلى تدقيق بحسب طريقة استغلال المعطيات المتاحة، فإن فسح المجال أحيانا للمقارنات مع بعض القوى الأخرى قد ساهم في إكساب متنه نفسا عميقا. لكن العلاقات الدبلوماسية بين طرفين أو أكثر، تخضع قطعا لميزان قوى بحسب الظرفية التاريخية؛ ولئن أولى المؤلف اهتماما واسعا بالتراتبية والتمايز بين بيزنطة والقوى المجاورة أو المنافسة لها، فإنه لم يدقق في مسألة مدى تطبيق مبدإ المعاملة بالمثل في سياق العلاقات الدبلوماسية التي جمعت بين بيزنطة وجيرانها، بمعنى مدى حضور نوع من الندية الدبلوماسية سواء على مستوى استقبال المبعوثين أو السفراء أو حتى على مستوى المراسم والمواكب الدبلوماسية. وينبغي التنويه أيضا بتناول الكاتب، في العديد من الفصول، المكانة التي يحتلها الدين في الدبلوماسية البيزنطية، فقد مثّل الدين أحد آليات السياسة الخارجية للإمبراطورية.

ويقر الكاتب أن الدبلوماسية، رغم النجاحات التي حققتها، فإنها ارتكبت بعض الأخطاء المتصلة بسوء تقدير ميزان القوى في المنطقة، ففي بداية فترة حكم ألكسيس، (Alexis)، ارتكبت السلطات الإمبراطورية خطأ في تحليل ميزان القوى على حدودها الشرقية، من خلال رفض التوصل إلى اتفاق مع سلاجقة بغداد العظام، ضد القوى التركية الأخرى القريبة جدا من الإمبراطورية، وقد كانت تمثل تهديدا لها.

وفي الأخير، ينبغي الإقرار بأن هذا الكتاب يعتبر إضافة حقيقية للمكتبة التاريخية وللمهتمين بالحقل الدبلوماسي وعملا جديرا بالقراءة، خاصة وأنه خلص إلى أن الدبلوماسية البيزنطية قد سمحت، لفترة طويلة، للإمبراطورية بالبقاء كأحد الفاعلين المستقرين في المجال الجيوسياسي المعقد؛ ذلك أن جيرانها كثر ومتغيرون على حدودها وخارجها. وبفضل أبهتها وسلطتها وقوتها العسكرية وثروتها، نحت بيزنطة في دبلوماسيتها، في كثير من الأحيان، وبشكل دائم، نحو محاولة استقطاب جيرانها وشركائها وإخضاعهم، بدلا من السيطرة عليهم والهيمنة بصفة فعلية.

المهدي جراد،
جامعة قطر